تاريخ الاستلام: 2019/08/08 تاريخ القبول: 2019/08/16

تحولات المدينة في الرواية العربية المعاصرة "هوية مكة المكرمة وتحولاتها رواية طوق الحمام أنموذجا "

City shifts in The contemporary Arab novel "The Identity of Makkah Al-Mukarramah and Its Transformations. The Novel of Tawk Al-Hamam as a Model

مصطفى سالمي

جامعة الأغواط

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى رصد تحولات هوية مكة المكرمة في رواية (طوق الحمام) لرجاء عالم، وبيان مدى تأثير هذه التحولات على الجانب العمراني والثقافي والروحاني للمدينة المقدسة، وعلى أفرادها بالنظر لأهم مكونات هوية المدينة المقدسة، الطبوغرافية والثقافية ومسار تحولات هذه المكونات الهوياتية.

كلمات مفتاحية: هوية، تحولات المدينة ، طوق الحمام. رجاء عالم

Abstract:

This study seeks to monitor the transformations of Mecca's identity in a novel (Tawk Elhamam) for **Rajaa Aleme**, and to demonstrate the extent to which these transformations take place on the physical, cultural and spiritual side of the Holy City, on its members who feel they are strangers, and their presence outside the status of tourism,

Keywords: : Identity, city transformations, Tawk Elhamam; **Rajaa Aleme**

المؤلف المرسل: مصطفى سالمي،الإيميل: Salmimustapha17@gmail.com

توطئة:

رواية (طوق الحمام) لرجاء عالم، حائزة على الجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر العربية 2011).تدور أحداث حكايتها حول جريمة قتل حدثت في أحد أزقة مكة القديمة، على إثرها تم ترحيل سكان الزقاق وهدمه، ليحل محله حي عصري جديد. المدينة في (طوق الحمام) تجاوزت كونها مسرحا للأحداث إلى كونها إشكالية هوية وصراع بين الأصالة والمعاصرة، فأصبحت بذلك علة أساسية في وجود العمل الإبداعي ذاته.

مدخل:

-الهوية: الاصطلاح والمفهوم:

من المهم بدءا أن نعرج على أصل كلمة هوية التي لا توجد في معجم لسان العرب لـ"ابن منظور". والتي نحتها الفلاسفة العرب أثناء نقلهم للفلسفة اليونانية. يقول "أبو نصر الفارابي": [في سائر الألسنة-مثل الفارسية واليونانية-لفظة يستعملونها في الدلالة على الأشياء كلها، لا يخصون بها شيئا دون شيء. وهي بالفارسية (هست) وفي اليونانية(أستين). وليس في العربية منذ أول وضعها لفظة تقوم مقام هذين اللفظتين ولا مقام نظائرهما في سائر الألسنة. فلما انتقلت الفلسفة إلى العرب ولم يجدوا لفظة ينقلون بها معنى لفظة (أستين) اليونانية و(هست) الفارسية، رأى بعضهم أن يستعمل لفظة(هو) وجعلوا المصدر منه(الهوية). مثل (الإنسانية) من (الإنسان).](الفارابي ، أبونصر ، 1990، ص 112.111. (بتصرف)). وقد وردت لفظة (الهوية) في معجم الحروف متقاربة مع (الماهية) و(ذات الشيء) و(جوهر الشيء)(نفس المصدر، ص ص97-127).

ويعد مفهوم الهوية من أبرز المفاهيم حضورا في العلوم الإنسانية، ومن أكثرها تغلغلا في حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية. وعلى الرغم من البساطة التي قد يتبدى بها مفهوم الهوية فإنه على درجة عالية من التعقيد والمشاكلة. ذلك أن الهوية ليست (كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتنمو، وتتكون وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب)(ميكشيللي أليكس ، 1993، ص 7). يعرفها "أليكس ميكشيللي" بأنها (مركب من المعايير، الذي يسمح بتعريف موضوع أو شعور ما)(نفس المرجع، ص17). وكل الدراسات التي اطلعنا عليها لا تختلف كثيرا عن هذا التعريف الموجز للهوية.

- المدينة في الدراسات النقدية العربية:

يقينا، فجميعنا يعلم أن موضوعة المدينة شغلت الفلاسفة منذ القدم. وبقي الحديث متواصلا في مدارها لأهميتها وارتباطها بحياة الإنسان وتطور حضارته، في كل العلوم والاختصاصات كالفلسفة وعلم الاجتماع والنقد المعماري. إلا أننا هنا سنركز على المدينة وتحولاتها في بعض الدراسات النقدية العربية فقط، بهدف توضيح موضوع دراستنا.

على صعيد الأدب ، نجد الرواية أكثر الأجناس اهتماما بموضوعة تحول المدن . نظرا لطبيعتها المرنة التي تسمح باستيعاب المواضيع الأكثر عمقا وتعقيدا. على غرار ما نجد في الرواية الكولونيالية والواقعية .

على صعيد النقد، نجد عدة دراسات عالجت خطاب المدينة وتحولاتها في بعدها التاريخي والفلسفي والاجتماعي والثقافي. ككتاب المفكر" علي حرب"(حديث النهايات). عالج في دراسة منه (المدينة وتحولاتها). ورأى أن المدينة اليوم ينتصر فيها الزمن على حساب المكان بأبعاده الثلاثة. وأنه لا مناص من تقبل المستجدات التي أفرزتها العولمة. بدلا من التقوقع تحت شعار الهوية القارة. (فالرهان هو العمل على تشكيل نماذج وطرز في العمارة، أو نسج علاقات ومبادلات، تؤمن التوازن بين زمان الجسم وزمان الرقم، أو بين البيئة الحيوية والأدمغة الاصطناعية، أو بين الذاكرة التراثية والتقنية المستحدثة، بحيث يقوم تلاؤم وتفاعل في هندسة المدينة، بين الحاجات النفعية والرمزية أو بين الأبعاد الخلقية والجمالية)(حرب علي، 2004 ، ص ص 161. 162.). وكتاب (القبيلة والقبائلية) لـ " عبد الله الغذامي" تحدث فيه عن المدينتين المقدستين، مكة المكرمة والمدينة المنورة. وأوضح أنهما تختلفان تماما عن باقي مدن المملكة. إذ يختصان بنظام ثقافي واجتماعي خاص في (أنظمة الطبخ والملبس والمسلك والمعجم اللغوي والطقس الاجتماعي بكافة تجلياته وهو ما لا نجده في

أي مكان آخر في الجزيرة العربية)(الغذامي عبد الله ، 2009، ص 131).أيضا في كتابه (حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية) تحدث "الغذامي" في مقالة منه معنونة بـ (عمارة المكان/عمارة الإنسان)(الغذامي عبد الله ، 2005،ص 169) عن مدن المملكة، التي عاشت الحداثة بسبب عدة عوامل منها طفرة النفط والتي عرفت بسببها مدن المملكة تطورا وتغيرا كبيرا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. لكنه أوضح أن هذه الحداثة حداثة ظاهرية، حداثة وسائل لا حداثة أنساق ذهنية وتصورات إنسانية. والسبب أن التطوير وُكل للعمالة الأجنبية، بدلا من رجال الوطن. فكان أن حدث في المملكة تنمية مكانية أكثر منها بشرية. أدت إلى انفصام بين الإنسان والمكان. وبقي جراءها المواطن السعودي خارج اللعبة. يعاني البطالة، اتكالي وسيادي، وتعطلت رغبته في العمل. كما صار يعاني من وحشة المكان الذي تغيرت ملامحه وانفصم عن ذاكرته التراثية.

1. مكونات هوية مكة المكرمة:

تمتلك كل مدينة مكونات ومقومات هوياتية تميزها عن باقي مدن العالم. نعرض في هذا المبحث بعض العلامات الثقافية والطبوغرافية المميزة لمكة المكرمة، والتي أوردتها الكاتبة بكثير من الاهتمام، حرصا منها على توثيق سيرة مكة المكرمة وثوابت هويتها، التي بدأت تتعرض للتغيير.

1.1 المسجد المكي الحرام :

يعد الحرم المكي أهم معلم معماري وروحاني،تتميز وتنفرد به مكة المكرمة. استمد قدسيته من وادي إبراهيم الذي شيد فيه، والذي به طاقة روحانية كامنة بمرجعية إلهية، نابعة من أحداث تاريخية فارقة. لذا فقد حرصت الكاتبة على ذكره بكل أبعاده، مرتبطا بالعبادة والفن والحياة والعجائبي. كما أجادت في صف معالم عمارته ومشاعره المقدسة، بكل تفاصيلها وجزئياتهاكمقام (إبراهيم عليه السلام) وبئر زمزم والكعبة المشرفة من الداخل والخارج وصحن الحرم ومآذنه وأبوابه، وشعيرتي الحج والعمرة. تفاصيل وجزئيات صبغت كل المدينة بصبغة القداسة والعراقة الموغلة في القدم:

- (يرى أن الملائكة تتجسد في تلك الحليات المقرنصة على الأعمدة، والتذهيبات الدائرة بالسقف تنسجه بالآيات والأسماء العظمى، وملائكة توقف بها الزمن في لحظة تجل. من تلك الأروقة العتيقة نما وعيه بالفن والتجويد كمرادف للمقدس)(عالم رجاء ،2012 ، ص 74)

في هذا المقطع، نجد إشادة بالأروقة القديمة بأقواسها وعمدها، والتي لما تزل تصارع لأجل البقاء جنبا إلى جنب مع الأروقة الحديثة. هذه الأروقة العريقة والأسقف تعكس فن العمارة والزخرفة الإسلامية كجزء مضيئ من تطور الحضارة الإسلامية، التي اهتمت بعمارة الأرض وصنع الجمال والسعادة للإنسان.

-(يخترق ثلاثتهم إلى صحن الحرم المحيط بالكعبة مثل كعكة مقسمة بالمعابر الرخامية تحصر حصى مغسولا بأدهان المسك والعود والعنبر، ذلك الحصى استبدل من زمن بالرخام الأبيض. ومع ذلك فإنه لا يزال وحتى الآن، حين يمشي حافيا على الرخام تتحبب راحة قدميه بخربشات الحصى القديم.) (الرواية، ص 72).

-(حين كشفت له تلك تسمية المؤرخين والفقهاء لباب السلام هذا ب((باب بني شيبة)) لأنه يقع مقابلا لباب بني شيبة في الجهة الشرقية منه، الذي يمثل حدود الحرم الشريف في عصر النبوة)(الرواية، ص 406).

-(هنا فوهة بئر زمزم لم يعد منها غير أنابيب وصنابير لا نعرف من أي ماء تطلع. قبل ربع قرن فقط كانت البئر والدلاء تقطر برغوة الأعمار والبركة لأمة مُحَّد.الآن، هبة الله زمزم صار للبيع)(الرواية، ص 406)

هذا وقد استدعت الكاتبة عدة شخصيات دينية، واستحضرت الكثير من الوقائع والأحداث التاريخية لتعكس سطوة الحرم وقدسيته، منتفضة ضد كل مايطال ذاكرة المكان وروحانيته.

2.1 جبال مكة أسرار كونية وشفاء:

تمثل الجبال من القدم أمكنة ثورية، تأوي إليها الخارجين عن القانون المدينة أو القبيلة، وبؤرة تجمع أعمق الهواجس والأحلام، وتتسع لأعظم الأحداث والتجارب.وجبال المدينة المقدسة اكتسبت قيمتها وقدسيتها من تحولها إلى مجرد رواسي إلى آيات تمس الوجدان والعقل، وتخاطب المشاعر والروح. وقد برعت الكاتبة في وصفها، مؤكدة على الطاقة الروحانية الكامنة بها، والنابعة من أحداث فارقة غيرت تاريخ البشرية.

أعرق الجبال وأقدمها على الإطلاق من حيث الأحداث الفارقة، جبل الرحمة بعرفات، الذي وَصَلته الكاتبة ببداية البشرية (حيث التقى آدم حواء أول هبوطها من الجنة)(الرواية، ص 403). وجبل أجياد الذي وصفته الكاتبة بأنه أقدم جبال الأرض. ورغم عراقته فقد تعرض للإزالة في خضم ما عرفته المدينة من حراك وتحولات:

-(وسواس يوسف هذا الجبل، الذي خرجت الجياد من صخره أول الزمان، تضرب بذيلها الأرض فتقوم القيامة.)(الرواية، ص 295).

ومن الجبال المقدسة، جبلا الصفا والمروة، اللذان يعدان من شعائر **الله**. أوردتهما الكاتبة موصولين بالمرأة والعطاء والحياة والجمال والجلال:

-(رغيف اليوم من خميرة الأمس. خذ العبرة من تاريخي بدأت مسكونا بالشياطين متحالفا مع حواء، لاستدراج آدم خارج الحرم يوم كانت مكة درة من درر الجنة تربض بعيدا بسرة وادي إبراهيم، والذي أشك أنه لا يزيد على حجر امرأة هي حواء ثم هاجر، والتي بسطت ساقيها من أول الصفا الى آخر المروة (من ذروة الجلال إلى قاع الجمال) وتهاوت أفئدة وقام الناس بالسعي بينهما.)(الرواية، ص ص 64.63).

كما أدركت الكاتبة ما يحققه الجبل من إثارة وراحة للنفس، وإحساس بالكونية، عندما أوردت جبل أبي قبيس ووصفته بأنه (فضاء موصول **بالله**)(الرواية، ص 78) ، وبأنه مركز لتثبيت أمكنة أحبها المكيون. كما نعتته بالقدسية، عندما ربطته بما يعتقده المكيون (بأن لحمة الراس هناك تقوي القلب وتشفي الصداع المزمن)(الرواية، ص 79).

هذا وربطت الكاتبة جبل أبي قبيس بأهم محطات تحول حياة البشر:

- (بصدر الفسحة يظهر الغار كشق في الجبل مسدود الفوهة بالحجارة المتراكبة بتنضيد كأحجية وبلا حشوة أو ملاط يثبتها، في مجلدات مراجع يوسف كان قد بناها (نوح عليه السلام) لستر مرقد آدم وحواء وولدهما شيث الذي أنزلت عليه خمسون صحيفة من الغيب وأقدار البشرية وأخفاها هناك بانتظار من يعثر عليها))(الرواية، ص 78).

- (يرقبها وينتظر الغروب قبل عودتهم آملا أن يعجل القمر فينشق على وجهها في الموضع نفسه الذي يزعم الناس أن القمر انشق فيه للنبي صلى **الله** عليه وسلم)(الرواية، ص 79)

هنا في جبل أبي قبيس يندغم ميلاد البشرية الأول مع أبينا (آدم عليه السلام) بميلاد ثان للبشرية مع سيدنا (نوح عليه السلام)، وحياة بشرية ثالثة، ذات قيم ورؤى جديدة مع سيدنا (مُحَمَّد صلى **الله** عليه وسلم). كما يتأكد الانتماء لثلاثتهم. أي أن جبل أبي قبيس يحمل رمزية الانتماء عبر تجليات المقدس التي لا تنتهي ولا تنضب. بل إن المقدس ماثل بغيبياته وبأسرار الكون، وبمعجزات أنبياء **الله** فيه.

الحديث عن جبال مكة لا يكتمل بدون حضور لجبل ثور وجبل النور هذا الأخير الذي اعتكف في غاره نبينا الحبيب (عليه الصلاة والسلام). أشارت إليه الكاتبة إشارة سريعة بأنه مهبط للرسالة المحمدية. الرسالة التي منحت جبل النور خصوصية القداسة، باتصاله مع السماء، كما أكسبت المدينة المقدسة كينونة هوياتية جديدة.

أما جبل ثور فقد حضر في (طوق الحمام) باعتباره رمزية للانتماء كما أبي قبيس. حيث يرى المكيون أن من يقدر على ولوج شقه الضيق يتأصل نسبه للمدينة المقدسة. كما أنه رمزية لمساندة **الله** للإنسان: (من يلج غار ثور يفارقه الحزن، فلا يحزن بعدها أبدا)(الرواية، ص 302).هذا ووثقت الكاتبة لعدة جبال أخرى كجبل عمر وجبل هندي، واللذين أُزيلا من خارطة المدينة بعدما كانا مركزين لتثبيت حقب زمنية مضت وذكريات جميلة تلاشت، وبؤرتين لمخيلة تاريخية عريقة تجذرت في أعماق أهل مكة.

3.1 أزقة أسطورية وحارات منسية:

قوة "رجاء عالم" كروائية لا تكمن في المتن الحكائي لروايتها إذ أن هذا المتن لا يعدو أن يكون حبكة بوليسية هشة البناء والتفاصيل. إن قوتها تكمن في (ذكاء الكتابة التي لا تكتفي بإدراك ما يقدم نفسه للإدراك، بل في الهامش ((اللامدرك)) الذي يرافقه ويتخذه أفقا له)(نجمي حسن، 2000، ص 118). إنها بكتابتها الذكية ترنو إلى شد القارئ، وجعله يرى ويشعر بما هو هامشي في النص.

إن تدفق مسميات الحارات والأزقة في (طوق الحمام) بشكل مكثف وكبير، يدفع إلى الاعتقاد أنّ حضور هذا الكم الهائل يتجاوز كونه خلفية للأحداث ومسرحا لتحرك الشخوص، إلى كونه تخليدا لمكة القديمة، وتوثيقا لأحيائها العريقة التي تلاشى بعضها ولم يعد له وجود. حي المسلفة وحي الشبيكة، والقشاشية وأم الجود والقرارة والشامية، السليمانية والبخارية، وحارة الباب وحي أجياد والحفائر... كلها حارات جاءت على ذكرها الكاتبة. ربطت بعضها بالجمال والرقي كشارع القشاشية المعروف بطابعه العمراني الأصيل، والذي كان من (أهم شوارع مكة وأهله أكثر أهل مكة تأنقا)(الرواية، ص 237). وشارع المنصور (والذي كانوا يسمونه في ماضي مكة (الأقحوانة) حيث تتوّج في النصف الأول من القرن العشرين بصفته شارع عروض الموضة (مثل حدائق الهايدبارك بلندن والسنترال بارك بنيويورك والشانزليزيه بباريس، يقصده أهل مكة عصر كل يوم للنزهة، ويتنافسون في التألق بالأردية والأكسية الزاهية اللامعة كقوس قزح والتي تكسف زينة الحكام الأتراك)(الرواية، ص 218). وربطت بعضها الآخر بالعراقة والقداسة كحي الشامية الذي ذكرت بأن به موضع دار أبي سفيان التي اشتراها من السيدة (خديجة بنت خويلد رضي **الله** عنها). كما ذكرت بعض الأزقة ووصفتها بالأسطورية لارتباطها بوقائع قديمة كزقاق (المرفق) الذي يعتقد العوام أنه كان به دكان سيدنا (أبو بكر الصديق رضي **الله** عنه) يبيع فيه الخز وبه داره.

هذا وصورت الكاتبة الأحياء المكية القديمة، وهي تضج بالأسواق، التي تعرضت لها الساردة بكثير من التفاصيل، لتسلط الضوء على مهنة التجارة، والتي هي من أقدم المهن لدى المكيين. سوق الصغير وأسواق المسعى والمدعي وسوق الليل ورحبة باب السلام وسوق الجودرية وسوق المعلا، وغيرها من الأسواق. كما أشارت الكاتبة إلى المقاهي الشعبيّة المنتشرة في الأزقة والحارات، والتي تعكس قيما ثقافية واجتماعية بالغة الدلالة. كالتآلف والمودة بين أهل الحارة، الذين يقصدون المقاهي طلبا للراحة والمتعة في جلسات أشبه بالجلسات العائلية، يتبادلون فيها الأخبار، ويتجاذبون فيها أطراف الحديث.

الأزقة والحارات العريقة تستحق الاحتفاء بها وتخليدها، كما هو الشأن مع كل الأحياء التقليدية والعريقة، الغنية بالمآثر التاريخية والثقافية. وكم من حيّ بقي خالدا في نصوص المبدعين ولوحات الفنانين كالحي اللاتيني وحي خان الخليلي اللذين ألهما "سهيل إدريس" و"نجيب محفوظ" رائعتيهما (الحي اللاتيني) و(خان الخليلي). ذلك أنّ الحي التقليدي يخلد هوية المدينة، إذ أنه يحفل بالأطعمة الشعبية والألبسة وعادات الأجداد وبالأسر العريقة، كما ورد في أحياء (طوق الحمام). وكل مدينة يزورها السياح، إلا قصدوا أحياءها القديمة ليتراءى لهم التاريخ الحي لتلك المدينة. من جهة أخرى، تقدم الساردة وصفا طبوغرافيا لهذه الأحياء القديمة، في مقاطع سرديّة متباعدة وقصيرة، فتصف دروبها بالتعرج وأزقتها بالضيق، وبيوتها المبنية بالحجر وأبوابها ورواشنها المصنوعة من خشب الساج. في إشارة ذكية منها أن هذه الحارات القديمة لم تكن بعيدة عن الذوق، بل كانت ساحرة وأخاذة، وأنها بمكوناتها المأخوذة من الطبيعة أقرب إلى الإنسان، ومنسجمة مع راحته ومناخ بيئته.

4.1 تاريخ المدينة المقدسة:

من الظواهر الملفتة حقا في (طوق الحمام) سيل النصوص التاريخية، التي أوردتها الكاتبة. نصوص تتناول الكثير من الأحداث والوقائع التاريخية، من تاريخ مكة القديم والحديث. جعلت من الرواية (أقرب إلى الوثيقة التاريخية تسجل حقائقها وتعكس واقعا وتحمل رؤية وتصورا)(بن السائح الأخضر ،2007 ، ص165). مما يدفع القارئ للتساؤل حول خلفية هذا الخيار في الكتابة.

"رجاء عالم" تبدو مهوسة باستحضار التاريخ كتقنية مهمة في تبطين النص الإبداعي بإيديولوجيات ترغب في طرحها ومناقشتها. فاتخذت الكاتبة لأجل ذلك أشكالا مختلفة لتقديم نصوصها التاريخية من مثل مقتطفات من أخبار صحفية ويوميات شخصية وصور فوتوغرافية واستدعاء للذكريات.

روايتنا (طوق الحمام) أرّخت للحاضر، وأنتجت معرفة تاريخية بالماضي، عندما عرجت الكاتبة في رحلة طويلة في تاريخ مكة قديما وحديثا، ابتداءا من نزول أبي البشرية إلى أرض مكة، وطوفان سيدنا (نوح عليه السلام)، الذي بزغت معه حياة بشرية جديدة،إلى قصة الرضيع وبناء الكعبة. ثم قبيلتي جرهم والعماليق اللتين سكنتا مكة المكرمة قديما، متخذة من ذكرهما أكثر من مرة سبيلا لقراءة ما يحدث في المدينة المقدسة من تحولات، ومذكرة بمصير الأمم التي عاثت فيها فسادا:

- (((بيع الاحسان كبيع الظل وزمزم وهو سبب لعن الأمم السابقة، فحين سكن مكة العماليق، كانوا في عزة وثروة، فبغوا وكانوا يؤجرون الظل، ويبيعون الماء، فأخرجهم **الله** تعالى من مكة، وسلط عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم،(..) وأبدل **الله** بهم جرهم إلى أن بغوا فأهلكهم .))))(الرواية، ص 85). وكأنّ التاريخ يعيد نفسه في القرن الواحد والعشرين (بأشكال مختلفة مستولدا من ذاته مبررات الوجود الجديد)(كتاب جماعي2000، ص 221). على حد تعبير "عمار بن طوبال".كذا سلطت الكاتبة الأضواء على جوانب عدة من عهد النبوة وما سبقها من إعادة بناء الكعبة وسدانتها زمن" قصي بن كلاب بن مرة" وما تلاه. كما ذكرت العديد من الوقائع والشخصيات في عهد آل عثمان مستقصية بعضا من هنّاته ومناطقه المظلمة، ملقية على بعض الحكام الأتراك اللائمة في التشوه الذي أصاب الحاضر، وممثلة دور الناقدة للتاريخ.

هذا وعرضت الكاتبة لتاريخ مكة الحديث من سقوط حكم الأتراك واستلام آل سعود الحكم في المملكة سنة 1926م. وما سبقها من وقائع عظيمة كمعركة تَرَبة، وأحداث كثيرة ومهمة تشهد على الأزمنة المتحولة التي عاشتها المملكة العربية السعودية، ومكة المكرمة خاصة، من حملات إرهابية وموت الملوك، وسنوات الطفرة والرخاء، وانضمام المملكة لمنظمة التجارة العالمية، وبادرة الانتخابات البلدية، واكتساح المرأة السعودية مجالات الإعلام والسياسة والطيران. بالإضافة إلى أحداث وتواريخ مهمّة حدثت في اسبانيا، عرجت عليها الكاتبة أحيانا بالتفصيل وأحيانا أخرى بالإشارة والتلميح معتبرة إياها جزءا مُهمّا من إنجازات المسلمين العظمى التي حققوها في الأندلس، وامتدادا أصيلا للهوية العربية الإسلامية.

وإن كان بعض القراء يعدون كثرة إدراج الأحداث التاريخية نوعا من الحشو والزيادة والترهل الذي لا يمتلك تأسيسا معرفيا أو عاطفيا للتيمة المركزية، التي تمحْوَر حولها السرد في (طوق الحمام) فنحن نراه خيارا موفقا لحد بعيد إذ أن [العودة إلى التاريخ، ليست دائما رغبة في التلذذ بالذكريات الجميلة أو متعة في التداعي الذاتي، بل لأنها حاجة حضارية صميمية](رماني إبراهيم،2007، ص 196. بتصرف). لذلك لجأت إليه الكاتبة، كاشفة مناطقه المضيئة والمظلمة، ومؤكدة على أنه السبيل الأمثل لمقاومة انهيارات الحاضر المغتصب، وتحقيق حداثة المستقبل في مثل قولها: (كيف تطبخ اللحظة الراهنة بلا مقادير من الماضي ورؤيا صوب المستقبل؟)(الرواية، ص 64). فالتاريخ يمثل جذورا لمقومات هوية المدينة، التي لن تصمد لتحولات الزمن إلا بالتمسك به.

5.1 عادات وتقاليد مكية:

رسمت الكاتبة لوحة من عادات وتقاليد المجتمع المكي ومجتمعات بعض مدن المملكة كالطائف وجدّة في عهد النبوّة وفي عهد الأتراك وفي الزمن الراهن. ومن التقاليد التي تناقلها أهل مكة من عهد (النبي صلى **الله** عليه وسلم) طقوس خاصة في دفن ووداع موتاهم، خاصة ما يتعلق بالجنسين وبالأعمار:

- (راقبنا كل جنائز مكة. نتبارى في تمييز الموتى نميز جنائز الشيوخ بغطائها المحايد عن جنائز الشبان بغطائها الأخضر، وجنائز الأطفال بغطائها المزركش، والأقفاص على جنائز النساء.)(الرواية، ص ص 180، 181).

وفي هذا تقول الناقدة السعودية "نورة صالح الشملان": (فالمرأة تميز عن الرجل بذلك القفص المصنوع من جريد النخيل، وكأنه يرمز إلى أن المرأة هي مصدر الخير والعطاء في بلد غير ذي زرع).(مجموعة باحثين من السعودية، 2005، ج 2، ص 784.) كما أنّ التمييز بين أعمار الموتى بالألوان يؤدي وظيفة إعلامية تعرّف الناس بطبيعة الميت. ونلاحظ أنّ اللّون الأخضر يتناسب وعطاء الشبان، كما يتناسب اللّون المزركش مع براءة ومرح الأطفال. أيضا، من عادات المكيّين قديما تأجير بيوتهم للحجيج. وقد ندرت هذه العادة حاليا، لانتشار الفنادق في مكة بشكل كبير جدا:

- (كانت مكة واقعة في سحر نوري المليح، ترقب أدق تحركاته، حين في كل موسم حج يلملم شجرة عائلته بكامل أوراقها ليزرعها على الأسطح بينما يؤجر قلعته للحجيج ليتبطّل بأجرتها طوال العام)(الرواية، ص 93.)

6.1 أكلات شعبية مكية :

إنّ إحساس الروائي بالخوف من اندثار وتلاشي بعض أطعمة الأجداد يجعله يلجأ إلى التوثيق. على غرار مافعلت "رجاء عالم" في نصها (طوق الحمام) حيث ذكرت الكثير من الأكلات التقليديّة المكيّة، كالعيش باللحم وخبز الشريك والسليق وحلوى اللدو، وربطتها بذاكرة المدينة.و بأسواقها وحاراتها الشعبيّة، المزدحمة بوجوه الغائبين عن المكان.

- (تندفع إلى حوانيت الكباب الميروْ، لتظفر بكرة من اللحم المخلوط بالدخن، ولا يبخل عليهم بائع اللقيمات بعجائنه المقلية والمغرقة بمعقود السكر أو الفلفل، يقفان يرقبان جرة الفول المدمس، بالسمن البلدي، ويد الهاون الخشبي تهرس بتناغم المعصوب من لب البر ولعاب النحل أو الموز في الجرار الضخمة)(الرواية، ص77).

فالأكلات التقليدية لها قوة مغناطسية، تجذب ما أفل من الأمكنة والوجوه. وهذا ما نلاحظه كثيرا في المنفى أو الغربة، إذ أنّ تحضير أكلات تقليدية يستحضر البلد الأم، والعكس الأكل الأجنبي يغمرك بأحاسيس الربة والوحشة في عقر مدينتك.

- (يوما ما سأطهو لك (العيش باللحم). صعب هذا الطبق. ولكم أكل من نهارات أمي)(الرواية، ص 256).

- (لا تندهش من كمية الكراث، هذا الأخضر الذي يحمي الدم، أتعرفه؟ من فصيلة البصل الأخضر. لقد فصدت جدّاتنا حدّته بمفروم اللحم والطحينة وبرودة العجين)(. الرواية، ص 265).

أبرزت الساردة أنّ هذه الأطباق الشعبية تحضّر وفق مقاييس الذوق والصّحة والمناخ. فالكراث يتناسب وحرارة الشمس المرتفعة جدا في مكة.

7.1 اللباس باعتباره نسقا ثقافيا:

حركات العولمة، والانفتاح على الآخر، وتطور الأزياء وحّد الألبسة أو قارب بعضها ببعض بين الشعوب. فلم تعد الأزياء لها صفة الخصوصيّة التي كانت تتمتّع بها من قبل. رغم ذلك، فقد عُرف الخليجيّون بأزياء تميّزهم عن باقي الدول الغربية والعربية الأخرى، جاءت على ذكرها الكاتبة ببعض العمق والتفصيل.

-(ثوب خليل الحرير المشغول، والغترة الناصعة من تصميم لومار. متوّجة بالعقال الأسود الفاخر، يكسوه المشلح الرمادي المطرز بخيوط القصب).(الرواية، ص57)

- (وأمامه المحتفلون من مشردي أبوالروس مختلطين برجالات مكة وأعيانها خلف الشريف بأغطية الرأس المزخرفة، وتلك البيضاء للعلماء، وتلك المحّوطة بعقال للبدو والأعراب...)(الرواية، 262).

هذا ويرد زيّ العروس المكيّة الحالي كشكل من أشكال التحوّل والإثراء للهويّة الثقافية، بعدما كان محصورا في الشرعة الحجازية. فتتنافس العرائس في اقتناء أو خياطة أجمل وأبهى فساتين الزفاف، التي تضاهي الفساتين الغربية:

- (انتقت معي لعرسها ذلك الطراز، الذي جسّد لها كل ما قرأته في البلاطات الفرنسية والروسية، بالوردتين المعلقتين على الكتفين، وقفازي التفتا الواصلين للمرفقين بدانتيل، والصدر المطرز باللؤلؤ)(الرواية، ص 170. الرواية، ص 75).

من جانب آخر أظهرت "رجاء عالم" الزيّ الوافد إلى المجتمع المحلي مظهرا من مظاهر الخلل الثقافي، الذي يعاني منه أي مجتمع من المجتمعات عند تغييب أو تهميش إرثها التقليدي. فتصف معاذ أنه (لوحة من تناقض الورع بالعصري محشورا في حذائه وبذلته الرياضية البيضاء صنع تايوان، تتوجها لحيته الشعثاء مثل حلية تنكرية واصلة لصدره). إنّها لا ترى في زيّ معاذ علامة تجدد وتلاقح مع الآخر، كما رأت في ثوب العرائس، بل تراه تناقضا وخللا. إذ تستنكر على ابن الإمام أن يرتدي لباسا غربيا.

تواصل الكاتبة نقدها للزيّ الوافد والمتمثل في الجامة والجلباب وكثرة الطرح على وجه المرأة والذي تراه سلب المرأة حريتها، وأدخلها في حفرة من العتم والعزلة عن العالم الخارجي:

- (بينما أنا في الطريق معجونة في المكعب الأصفر ما بين المدرسة وهذه المسروقة، أروح وأجيء وعلى عيني عصابة كتلك التي يربطونها على عين الصقر فلا يفزع حين يرى أكثر مما يجب)(الرواية، ص 308).

والكاتبة ترجع المبالغة في تغطية وجه المرأة وجسدها بالسواد إلى ثقافات وفدت إلى المملكة كثقافة أفغانستان وآل عثمان:

- (ثم بدأ التنويع مع المد السوفيتي وتصاعد حركات الجهاد، وفاضت الموسوعة لتشمل xxxx وxxx وxx طبقات سواد فوق طبقات..)(الرواية، ص 198).

وترى أن هذا السواد كان عاملا من عوامل حرمان المرأة الخليجية من كثير من حقوقها في فترة مضت.

2. مسار التحولات في المدينة المقدسة وأبعاده الرمزية:

1.2 الملجأ المقدس:

اتّبعت الكاتبة استراتيجيّة ذكيّة في تصوير صيرورة مكة، منذ أوائل القرن العشرين إلى الزمن الحاضر، فاتّخذت الصّور الفوتوغرافيّة كشكل تعبيريّ ذهنيّ لتوضيح التحوّلات التي طرأت على جسد المدينة. لأنها الأنسب في رأينا، لتجعلنا نقرأ، نرى ونشعر بالحنين للزمن الجميل، الذي أفل بأفول ملاح مكة القديمة بأزقتها الضيّقة وأسواقها وجبالها... بل وتُبكينا وتجرحنا تلك الصّور التي تراجعت روحانيّتها وخيّمت في ظلالها الغربة. بيت المصوّر (اللّبابيدي) مكوّن من طوابق، كلّ طابق يحمل صورا لأزمنة قديمة لمكة، وكلّما انحدرنا إلى طابق تراجعت روحانيّتها، وطغت ملامح مكة الحديثة على ملامح مكة القديمة:

- في الطّابق الأعلى صور (صحن الطّواف بالحرم. مشاهد من كل الأزمنة لدوّامة الحركة البشريّة في صحن الطواف، نقاط لا نهاية لها من رؤوس غارقة في الحجر الأسود، أو ساجدة متزاحمة في الحطيم، أو متعلّقة تستجير بالملتزم أو تغتسل بدلاء زمزم وصلوات التهجّد، تتكرر وتتنوع عبر السنين إلى مالا نهاية)(الرواية، ص 152).

- في الطّابق الذي يليه صور (نادرة لهندسة الحرم منذ بدايات القرن العشرين، قبل التوسعة والإزالة لبئر زمزم وقبّته، وبوابة بني شيبة، ولمقام إبراهيم الذي هو مقام الإمام الشافعي، والحطيم أو الحجر ومقام الحنفي والمالكي والحنبلي. والمباني التي تجاهد للإطلال على ذاك الصحن: قصر الحكومة أو الحميدية، وقلعة أجياد)(الرواية، ص 152).

- في الطّابق الذي يليه (شبكة أزقّة مثل أبوالرووس غاصّة بوجوه لم يعد يوسف أو معاذ يلتقي مثلها كل يوم في طريقه)(الرواية، ص 153). وهكذا كل طابق يحمل صورا لعقد زمن مضى من مكة.

وأوّل ما نلاحظه، ترتيب الصّور الفوتوغرافيّة ترتيبا دقيقا منظّما، فالطّوابق العلويّة من البيت تحمل صورا لمكة القديمة، صور أقرب إلى السّماء، ومن ثمّ أكثر روحانيّة.أما الطّابق الأرضي، فيحمل صورا لمكة

الحديثة، حيث يبدأ التغريب، وتتراجع روحانيّة مكة، وتتوسّع الأزقّة القديمة وتفقد البيوت رواشنها السّاج، وتبدأ سفوح الجبال بالتّآكل لتفسح مجالا للإسفلت يشقّها.كما نلاحظ أنّ بعض الصّور جعلتها الكاتبة ناتئة أكثر من غيرها، قدّمتها ببعض التفاصيل (كي نتلقّاها دون غيرها أو نتلقّاها أعمق من غيرها.)(شعرية الفضاء، حسن نجمي، ص 121).

_ (وطلاّب العلم من اليمن بطبولهم يرقصون كل الطّريق للبيت الحرام لكسب الرزق لتمويل إقامتهم وتلقيهم لعلوم الدين بمكة.)(الرواية، ص ص 153.154).

_ (بدت صورة المجلس الأرضي تغوص بهما لحفرة، حولهما تحوّل قلب مكة إلى صحن مرصوف بالرخام طامسا سوق الصغير وأسواق المسعى والمدّعي وسوق الليل ورحبة باب السلام (جنوب شرق) الذي يدخل منه الحجاج إلى الحرم.)(الرواية، ص 155).

هذه الصّور الفوتوغرافيّة التي أطالت الكاتبة وصفها، أرادت من ورائها توثيق بعض الأماكن والمباني التاريخيّة التي أُزيلت مع التوسعة. كما ذكّرتنا بنيّة المهاجرين لمكة، الذين يقصدونها لطلب علوم الدّين ومجاورة بيت الله، لا لنهبها ومسخها. أما الصّور الأخرى، الأقل نتوءا، فتدفعنا للبحث عن اللاّمرئي الذي هو ليس عدما وإنّما (نسبيّ بالنسبة للمرئي.)(شعرية الفضاء، حسن نجمي، ص 121). من هذه الصور:

- (والنسوة المتكئات في البساتين يدخنّ الشيشة)(الرواية، ص 153). هنا إشارة تتضمّنها هذه الصورة، وهي عادة التدخين عند النساء، وجلوسهن للتنزّه والراحة في بساتين مكة قديما، قبل دخول المرأة المكية في مكعب السواد. أي أنّ المرأة المكيّة قديما كانت أكثر تحرّرا من المرأة حديثا.

- (صحن كقاع حفرة كونيّة تتعالى حولها الأبراج الزجاجيّة عاضّة في لحمة ما بقي من الجبال العارية)(الرواية، ص 155).

جبال مكة كانت أكثر حيويّة ببيوت الحجر الجميلة، التي كانت مبنيّة في قممها، ومع التوسعة والإزالة أصبح ما بقي من الجبال صامتا وعار. وناطحات السّحاب والفنادق الضّخمة حلّت محلّ الجبال التي نُقضت وزاحمت ما بقي منها مطوّقة الحرم.

من هنا، من بيت (اللّبابيدي) الملجأ المقدّس الذي حوى صورا نادرة لمكة وتحوّلاتها، يدرك كل قارئ حتى القارئ المستعجل كمّ التحوّلات الذي آلت إليه المدينة المقدّسة. والتي أجادت الكاتبة في تأطيرها في صور فوتوغرافيّة، لحملنا على مساءلتها لا من وجهة المتعة، ولكن في علاقتها بما أسماه "رولان بارت" رومانسيا الحب والموت(Roland Barthes, 1970, p115.).

2.2 قصّة مدينة:

سنعرض في هذا المبحث قصة المدينة المقدسة وهي تبحث لنفسها عن موقع بين مدن العالم. حيث اختار مهندسوها مدنا غربية عالمية كلاس فيجاس ونيويورك وواشنطن واتّخذوا منها مرجعيّات بصريّة وذهنيّة لعولمة مكة، وزجّها فيما سمي في بدايات القرن العشرين بالمدينة العالمية. التي لا تقتصر على الشكل العمراني فحسب بل تتعدّاه إلى قدراتها في جذب الاستثمارات والبشر والمعلومات والأموال.

* من مكة إلى لاس فيجاس: صاغت الكاتبة مقارنة صادمة وجريئة بين المدينة المقدّسة مكة المكرمة ومدينة الخطيئة لاس فيجاس في أكثر من موضع، لتؤكد حجم التحوّلات الحادثة في مكة. ورغم اختلاف هويّة المدينتين إلاّ أنّهما يتوافقان في كثير من النّقاط، المثيرة للدّهشة والتّساؤل.

أوّل نقطة اشتراك بين المدينتين أشارت إليها الكاتبة هي كثرة الأضواء والأنوار التي تسبح فيها المدينتان ليلا، والمتألّقة من الفنادق والمحلاّت التجاريّة الضّخمة، والتي تعكس صور البهاء والبذخ التي تميّز المدينتين:

- (هبط العتم محوّلا مكة إلى طاسة من الرخام طافحة بأضواء النيون(..) ألقت لاس فيجاس بأضوائها الكاشفة على أعتاب بيت الله.)(الرواية، ص ص75.74).

المبالغة في الإضاءة ليلا بشتّى المصابيح، المختلفة الأشكال والألوان هي حتما من ميّزات مدن التسليّة والمتعة التي تقوم بجذب الزوار لمحلاّتها وملاهيها. هكذا يلاحظ من أوّل وهلة كلّ مشاهد أو زائر للاس فيجاس. كذا المدينة المقدّسة غرقت في الأضواء المنبعثة من المجمّعات التّجاريّة التي تلعب دور الدّعاية الاشهاريّة لها. ونلاحظ أنّ قربها الشّديد من الحرم لا يتناسب وقداسة المكان. النقطة الثانية الجامعة بين المدينتين هي التّطاول في البنيان أو بما يسمّى بالبناء الرأسي، واتّباع أسلوب (الإبهار والمقاييس الضّخمة في العمارة والعمران)(عبد الرؤوف علي ،(2014) ، ص 110.). تقول الكاتبة موضّحة ذلك:

- (كان العرب يهدّمون كل بيت يتطاول على الكعبة، وقصيّ قام بذلك. ويهدّمون كل بيت تربّع ونحن لاس فيجاس في مكة نتطاول ونتربّع.)(الرواية، ص 413).

قلنا أنّ مكة تبحث لنفسها عن موقع بين مدن العالم المركزيّة، لذلك استحضرت الطابع العمراني اللاس فيجاسي. وقد سلّطت الكاتبة الضّوء على ظاهرة تحوّل مربكة طالت تغيير مسميّات الأحياء وتسمية الفنادق بأسماء أعجميّة كفندق فيرمونت وفندق إنتركونتنتال. وجميعنا يعلم أنّ قوّة اللّغة هي جزء من قوّة الأمّة. وإعطاء مسميّات أجنبيّة لفنادق مكيّة هو نوع من الإقصاء المدروس للّغة العربيّة والتي تمثّل واحدا من أهمّ المقوّمات القاعديّة للهويّة المكانيّة. هذا النّوع من الاقصاء نجده يتعاظم في حالة الاحتلال العسكريّ أو في حالة العولمة. واللّتان تتجاوز فيهما الأمم والأقوام الصّراع الماديّ إلى الصّراع الرّوحيّ والرّمزيّ. كذا تغيير مسميّات الأحياء والشّوارع والمواقع يحمل هو الآخر رمزيّة إقصاء ثقافة السّكان المحليّين:

- (كتب ملحوظة عن حيلة خلع المسميّات تلك، أبوالروووس لدرب النور، وأم الدود لأم الجود في عمليّات تجميل للتاريخ. يُدرك ناصر أنه لو أطال البقاء في تلك البقعة -بين دوائر التزوير والترحيل والجوازات والجنسية -لبدأ الدودُ ينخر في عظامه من المقتلة العظيمة التي تمَّت في هذه البقعة)(الرواية، ص 194).

أسماء الشوارع والأحياء لها تاريخ مرتبط بثقافة سكّانها وذكرياتهم وتاريخهم المحليّ.وتغيير مسمياتها هو تزييف للتّاريخ، واغتيال للموروث من خلال فرض رواية انتقائية لها. وأمّا الأبراج التي تطاولت على الكعبة المشرّفة، فقد صوّرتها "رجاء عالم" في لوحة تناقض صارخة تتصادم وطبيعة المدينة:

- (الليلة ليلة أكابر، فندق الصولجان بأعالي الأبراج، عرس سكرتير الشيخ الصبيخان...(..) ((استقدموا أحلام البحرانية بفرقتها خصيصا))(الرواية، ص 298). التناقض هنا يكمن في عرس بفرقة موسيقيّة في برج أجنحته (مفتوحة على صحن المصلين بالحرم)(الرواية، ص 299). وهذا ما دفع الكاتبة أن تصف هذه الأبراج بالتطاول والتربّع على الكعبة، والتي كانت زمن سدانة "قصي بن مرة بن كلاب" الجدّ الرابع للنّبي (مُحَمَّد صلّى الله عليه وسلّم) لا يجرؤ أحد على بناء بيت أطول منها، تعظيما وتقديسا لها. في موضع ثالث، كشفت الكاتبة بطريقة ذكيّة عمق التّشابك بين مدينة الخطيئة ومدينة القداسة حين أوردت الفيلم السّينمائي الأمريكي (Ocean 12,13, 11) والذي كان من الأفلام التي يشاهدها البطل خليل قبل موته. الكاتبة لم تذكر هذا الفيلم عبثا بل اختارته بعناية. وعند مشاهدتنا وقراءتنا لهذا الفيلم استنبطنا الكثير من نقاط التّشابه بين المدينتين: منها هول وجشع رجال الأعمال في مدينة الآثام والذين يستحقّون القصاص لهدمهم المعالم التاريخيّة للمدينة، واستغلال أراضيها لبناء الملاهي والفنادق، والمحلاّت التّجاريّة الضّخمة. وارتفاع أسعار أراضي المدينة بشكل هائل جرّاء ذلك.هذه الأمور هي ذاتها أوردتها الكاتبة في شكل تقرير صحفي، لحملنا على التّصديق وتقبّل ما تقوله كونه حقائقا لا يساورنا فيها الشّك:

-(اتّجاه توسعة الحرم أصبح معجزات أينما أشار جعل متر التّراب أثمن من متر الألماس المكعّب)(الرواية، ص 413).

وقد أشار الناقد "علي عبد الرؤف" أنّ الأراضي القريبة من الحرم هي: (أعلى الأسعار على مستوى العالم (..)وأمّا مدينة لاس فيجاس فتنفرد باقترابها من الأرقام القياسيّة التي تحقّقها أراضي البناء والعقارات المحيطة بالكعبة المشرّفة والمسجد الحرام)(من مكة إلى لاس فيجاس، علي عبد الرؤوف، ص 111).

* من مكة إلى نيويورك: مدينة نيويورك مدينة الأعراق والهويّات الثقافيّة المتباينة، التي تضعها الكاتبة هي الأخرى في مقارنة مع العاصمة المقدّسة. حيث تتشابك المدينتان في كثير من الأوجه. عرضت لها الكاتبة في التّركيبة البشريّة المتنوّعة، والتي تميّز المدينتين. وفي التّطوير الذي عرفته نيويورك منذ العشرينات، وتعرفه مكة اليوم:

- (التّطوير هنا رهيب يا عمّتي، مليارات تصبّ مع كل طلعة شمس هنا، الشركات العملاقة هي دولة كونيّة خارجة عن قوانين الدول (..) ولا ماناتن بنيويورك، وهذه الأنوار تتعلّق في هذا الوادي الإبراهيمي ليبرق كشجرة كريسماس صدقيني لو خرج أبو الرووس في نزهة بمكة سيظن أنّه بعث بنيويورك.)(الرواية، ص 297.).

إذن، المدينة المقدّسة بأبراجها الشّاهقة ومبانيها الرأسيّة وأضوائها الصّاخبة، تحاول أن تضمن لنفسها موقعا على المسرح العالمي لمضاهاة المدن الغربيّة العالميّة. لإعطاء انطباع جيّد عن قوّة اقتصادها وقدراتها. في حين أنّها في غنى عن هذا التّقليد، لأنّها مدينة عالميّة بالفعل (تبعا للتّصنيف الأشمل للمدن العالميّة والذي يتضمّن التّأثير الثّقافي والحضاري والعقدي للمدينة.)(من مكة إلى لاس فيجاس، علي عبد الرؤوف، ص 82.). ومكة المكرّمة لها من القداسة والعراقة، والثّراء الثقافي والتّاريخ الرّوحي ما يخوّلها أنْ تكون مدينة نموذجيّة لا مدينة تابعة.

3.2 الإحساس بالعمارة:

أكثر ما يلفت انتباهنا المقاطع السردية الكثيرة، التي ضمّنتها الكاتبة إحساسها بالمدينة، وتأمّلاتها في المعمار، وتفاصيل الواجهات والأبواب والأعمدة وغيرها. ممّا أهّلها أن تكون ناقدة معماريّة بامتياز. تقول منتقدة أهل مكة الذين باعوا بيوتهم وأراضيهم الكائنة حول الحرم: - ((رجال من أحشاء مكة، مثل أبي، كلكم تتشابهون، سمك يموت خارج الماء، خارج الدائرة الضيقة اللصيقة بالحرم، لكنكم ومع ذلك تقفزون متوسعين للخارج وتدقون أعناق أولادكم، ما الذي تطلبه في حي بلاستيكي حديث كالرصيفة؟))(الرواية، ص 60).

إنّ تعلّق المكيّين بمجاورة الحرم في السّكن، انقطع تحت سلطة الإغواء المادي، أو الإخضاع بالقوّة من طرف شركات المقاولة، التي أجبرتهم على ترك بناياتهم العتيقة، والرّحيل إلى أحياء حديثة وصَفتها الكاتبة بأنّها بلاستكيّة، لهشاشتها وعدم صمودها للتّاريخ. هذه الأحياء الجديدة تفتقر إلى الصّلابة، لأنّها لم تُبْنَ من طبيعة المكان، من حجارته وخشبه وطينه. وبالتّالي هي أمكنة بلا روح، تُشعر الإنسان بالغربة لبعدها عن الحرم، وبالوحشة والانقسام عن التّراث والذاكرة. تصف الكاتبة حيّ الزّاهر، وهو من الأحياء الحديثة، الّتي نشأت بعد طفرة النّفط تقول:

- (ورغم حداثته فلقد تآكل، وتوزعت المباني تحت الإنشاء هنا وهناك وما بينها وحشة وعزلة، حي لا يستحق نظرة أخرى، كل مبانيه متناسخة وخارجة من رأس بلا مخيلة، بنوافذها الضيقة، كل صف عمودي منها محصور في إطار اسمنتي يمتد من أعلى البناء لأسفله، من ثلاثة لأربعة صفوف تغطي واجهة كل عمارة، وتغطيها تعريقات الألمنيوم المذهب. الشارع أشبه بجثة تنفخ بخارا، بلا قدم تحييها فقط صف من العربات على الجانبين لركاب أشباح لا يظهرون لعين.)(الرواية، ص 141).

هذه الأحياء تفتقد للبهاء كما تفتقد للإنسانيّة، إذ تشعر الإنسان بالعزلة والوحدة، بعيدا عن علاقات الجوار والحميميّة، والتي نجدها في الأحياء الشعبيّة. وقد تحدّث " عبد الله الغذامي" طويلا عن الأحياء العصريّة، الّتي أحدثت انفصاما كبيرا بين الإنسان والمكان، وأدخلته في دوّامة من الإحساس بالضّآلة والوحشة، حيث لا يوجد سوى صرير السّيّارات، ورطانة المطّاط في أحياء فسيحة ومعبّدة ومزيّنة بالإعلانات وناطحات الغمام، وذلك يعود ـ حسب رأيه ـ إلى التّنميّة الّتي طالت المكان أكثر منها الإنسان. فانتُزع منها البُعد الإنساني، وصارت أبنيّة بلا روح(حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، عبد الله الغذامي، ص169). يقول "ادوارد سعيد" واصفا الإحساس الرهيب الذي يشعر به ساكنو الأحياء العصريّة، ذات البنايات الضّخمة والشّاهقة: (لقد حوّلتني ضخامة نيويورك الهائلة، وبناياتها الشّاهقة الصّامتة والمغلقة إلى ذرّة تافهة، فأخذت أتساءل عن موضعي من هذا كله.)(الداهي مُحَمَّد، 2013، ص 283).

ويمكن القول اذن أنّ هذه الأحياء قد تكون صحيحة في الهندسة لكنها خطأ في الحياة.

التّحديث في أم القرى، لم يطل الأحياء والبنايات فحسب، بل تعدّاه إلى المقابر:

- (يقومون بتعلية مقبرة المعلاة، وتحويلها إلى طوابق. وكأنصار للفن الحديث والفن المفاهيمي، نحلم بأن تصير برجا في غمضة عين. وقريبا سنعبر بموتنا للحداثة أو لما بعد الحداثة.)(الرواية، ص 216).

هنا رفض واضح ومتكرّر بأسلوب ساخر للتّصميم الرّأسي في المعمار، واستنكار لما يحدث في القبور التي انتُهكت خصوصيّتها، وتعرّض بعض موتاها للتّرحيل، مثلما حدث لمقبرة الشبيكة. "رجاء عالم" بقدرتها النقديّة وامتلاكها واحتوائها للفضاءات بشكل مذهل، لم تتوقف عند حد النّقد للطُّرز المعماريّة الوافدة، بل تعدّته إلى طرح البديل الذي تراه الأقرب والأنسب للحفاظ على ذاكرة المدينة وهويّتها. وذلك عندما استحضرت الطراز المعماري الأندلسي. لتطرح ثنائيّة العطاءات والتقلّبات، عطاءات الفردوس المفقود في الطّرز المعماريّة الخالدة والمبهرة: - (تتبعا معي شواهد العمارة الدينية المستقاة من الطراز الإسلامي في عهد المرابطين، هنا في باب المردوم، هنا في كنيسة كريستودولالوز (..) انظرا البوابات المهيبة وحليات الأسطح، تذكر بروعة العمارة في مراكش وفاس وتلمسان....))(الرواية، ص 216)

الكاتبة طبعا لا تنفي ضرورة التحديث، ومسايرة العصر، ولكنّها تدعو إلى حلول تتناسب والبيئة المحليّة، باستخدام مواد بناء من الطّبيعة المحليّة، واتّباع طرز معماريّة عربيّة واسلاميّة على غرار ما هو موجود في الأندلس وفي المغرب العربي، بدلا من الطرز الغربية. وفي هذا الصدد، يقول المعماريّ "حسن فتحي": (الشكل المعماري يجب أن يتقرّر تبعا لاعتبارات روحيّة وفنّيّة، مناخيّة، واجتماعيّة، إضافة إلى اعتبارات الوظيفيّة، والإنشائيّة ومواد الإنشاء.)(فتحي حسن ، (1988)،ص 22).هذا وقد قلنا أنّ الساردة استدعت الأندلس لتطرح أيضا التقلّبات، التي عرفتها المدينة المقدسة. تقلّبات لم تبق ولم تذر من ماضي المدينة إلاّ النّزر.

3. متاهات الأزمة الهُويّاتيّة وعنف المدينة:

التغيّر ميزة إنسانيّة، وضرورة حتميّة تلازم كلّ عصر من عصور التّاريخ، وكل تغيّر في العمارة والقيم والنُّظم الاجتماعية والثقافية (ينتج عنه تأرجح الذات بين الدفاع عن القديم الذي يموت والتبشير بالجديد الذي لا يعرف كيف يحيا)(كتاب جماعي، المحكي الروائي العربي، ص222). ومن ثمّ تتولّد أزمة هويّاتيّة لدى الأفراد تجعلهم يعيشون حالات من التيه والتمزّق الشّديد والانشطار الذّاتي. بالانتقال إلى الرواية محلّ الدّراسة، نلاحظ ،أن الكاتبة لم تكتف برصد التغيّرات والهزّات الّتي ساهمت في تعميق الأزمة الهويّاتيّة لدى الأفراد، وخلق إشكاليّة هويّة مكانيّة في المدينة المقدّسة، بل سعت إلى إبراز المدينة في بعدها الآخر المعتم.

*** الجريمة والبغاء:**

التنوع الحاد في التركيبة البشرية في مكة المكرمة، بسبب الحجيج والعمالة الوافدة، ورجال الأعمال والاستثمارات، والمهاجرين غير الشرعيين، أدى إلى تحول في القيم والنظم الاجتماعية، وانتشار البغاء وجرائم القتل والاغتصاب بشكل واسع في المدينة المقدسة:

-(حتى صار ينظر إلى ذاته كمتستر يعرف عدد المتخلفين بلا أوراق رسمية، والذين يتقاسمون إيجار عشش ليتناوبوا المتع المتاحة على فرشي المكورة والمبعوجة)(الرواية، ص 67)

-(كل يوم تمر عليه عشرات القضايا كهذه مختومة بالقتل أو مفتوحة بالاغتصاب)(الرواية، ص 21)

بل إن هوس الكاتبة بتوثيق سيرة المدينة المتحولة، وظواهر العنف التي أفرزتها، جعلها تبني حكاية روايتها الرئيسية حول جريمة قتل حدثت لامرأة وجدت عارية ومهشمة الوجه، مرمية في أحد شوارع مكة الشعبية القريبة من الحرم.على إثرها تم توجيه أصابع الاتهام إلى كل شباب الزقاق، وإلقاء القبض عليهم، وتعرضهم لشتى أشكال التعذيب والتنكيل على غرار ماحدث لخليل. الذي انتهى به المطاف إلى الانتحار. هذه الجريمة كما وضحت الكاتبة اتخذتها السلطات ذريعة لتدمير كل الزقاق العتيق ونسفه واستبداله بحي عصري جديد. فضلا عن انتشار البغاء، الذي تمثل خاصة في الخياطة التركية ، والتي كانت تغوي بنات الأسر الفقيرة، وتزجهن في عالم الدعارة والرذيلة. باسم العصرنة وحرية المرأة.

*** انشطار الذات وقلق الهوية:**

الإنسان المعاصر هو إنسان"التيه" بامتياز كما أقر ذلك عدة فلاسفة. ذلك أن العولمة والانفتاح على العالم الخارجي، وتآكل الحدود بين الجماعات والثقافاتتجعله حبيس حالات من الشعور بالتيه و بالاغتراب عن ذاته وعن هويته. على غرار مايحدث لسكان المدن السياحية أو المدن المفتوحة للاستثمارات العقارية. وقد أجادت الكاتبة في تصوير حالات الانشطار والتمزق الهوياتي، التي يعيشها أهل مكة

المحليين بدقة متناهيّة، والذين خبروا مدينتهم أكثر روحانية من قبل، صديقة للبيئة والطفل والمرأة. أصبحت اليوم مدينة طافحة بفضاءات العنف: -(أحتاج إلى جمع شظايا هويتي، كبقية أبناء جيلي النفطي.)(الرواية، ص 25)

- (كلما رفعت بصري برق بشر وحوانيت، وألوان، تصدمني، أراهن: لا يمكن أن يجتمع في مساحة مترين نفس لون البشرة، مكة حمامة تطوق عنقها ألوان متجاوزة لتدرجات الطيف البشري)(الرواية، ص 25).

"رجاء عالم" قدّمت وصفا بليغا لتنوع التّركيبة البشريّة والجغرافية في مكة. هذه التّركيبة الّتي صدمتيوسف وأربكته، وجعلته يغوص في دوّامة تيه، بعدما أخفقت كل محاولاته في مجابهة التغير الحاصل في مدينته.

هذا وقد وظفت الكاتبة تقنية الوصيّة أو المخطوطة، لتقف من خلالها على بعض الحقائق المسكوت عنها تاريخا وجغرافية. عندما قدّمت صورة اليهودي العربيّ الذي يعاني من تأزّم هويّاتي بسب تعدّد انتماءاته وتشظي هويّته، بأبعاد تختلف عن الصورة المتداولة لليهودي الشايلوكي. إذ ظهر اليهودي في طوق الحمام في شكل شركات عابرة للقارات، دخلت المدينة المقدسة لا بهدف تطويرها بل بهدف نهبها، امتثالا لوصية الجدة سارة بنت كعب بن الأشرف، التي حملت على عاتقها مسؤولية عودة اليهود إلى الجزيرة العربية، بعدما كان قد طردهم النبي مُحَمَّد ﷺ من خيبر.

هوس الكاتبة بتوثيق سيرة مفصلة لتحول المدينة المقدسة، بكل أبعادها المعتمة منها خاصة، جعلها تدرج سيلا من الأمكنة المهمشة كالأزقة الشعبية الطافحة بالعمالة الهاربة والمهاجرين غير الشرعيين، وبالأربطة والسجون ومستشفى المجانين وزوايا قصور رجال الأعمال، متخذة منها خلفية تصور من خلالها أقصى أنواع الحرمان والتهميش وطمس الآخر المختلف الهوية. والذي لفظته المدينة المتحولة كالصحفي يوسف الرافض للتحول، والذي تم رميه في مستشفى صحي بعد اتهامه بالجنون. ويسرية التي خسرت بيتها المجاور للحرم، وانتهى بها المطاف إلى رباط موحش ومعزول عن كل ماهو حديث وحضاري. ومشبب الذي تم هدم بستانه العتيق، الذي قضى عمره يجمع فيه تحف وآثار مكة القديمة.

***عنف الطرقات:**

إن الطريق في كتابة"رجاء عالم" يبدو أكثر زحمة وأقل رحمة، متواطئ مع التغيير ومتنكر لماضي المدينة، فضاء مشحون بالفوضى والصغب والموت:

-(لساعات انحصر المحقق ناصر بسيارته في نزلة حارة الباب المؤدية للحرم، بين صفوف أربعة للسيارات تئن محركاتها مرسلة عوادمها في حر مكة وتتنافس مع حافلات النقل الجماعي، وشاحنات البضائع والثلاجات الموردة للأغذية والخرفان، وحافلات شركات السياحة الدينية، والتي يدوس سائقوها على دواسة البنزين ويندفعون في الزحام لإرهاب السيارات الصغيرة التي تنحشر في أضيق الفراغات للفرار من حركة المرور المشلولة)(الرواية، ص214)

-(لقد صرفت النظر عن إنجاب الأولاد لهذا العالم، حين صار عزرائيل يحول التكاسي إلى سيارات سباق، يوما ما ستقصف عمرك بيدك)(الرواية، ص 61)

لم يعرف الموت طريقه لمكة رغم أوبئة مواسم الحج كالإنفلونزا والكوليرا والحمى الشوكية، لكنه دخلها بعنف الطرقات التي غصت بالسيارات والآلات الحديثة، كالدراجة النارية التي هشمت ركبة يوسف، وحادث المرور الذي أودى بكل أفراد عائلة عائشة إلى الموت لتبقى الناجية الوحيدة، تصارع الوحدة والكآبة، بعدما تهشم حوضها وأحيلت للايداع.

***بيت العنكبوت:**

على القارئ أن يقيم علاقة تنأى عن السطحية مع المشاهد العابرة وتفاصيل الحياة اليومية، التي تودعها الكاتبة بين سطور نصها الروائي. كتفاصيل العلاقات والأصوات خلف الأبواب المغلقة والنوافذ المسمرة للبيوت المكية، والتي شبهتها الكاتبة ببيت العنكبوت، بعدما بدأت

تعرف تفلتا وتفككا بين أفرادها، من قبيل الصراع الوجودي بين الحضور الأنثوي وهيمنة السلطة الذكورية الذي أرادت الكاتبة تصريفه عبر شخصية أم السعد، التي كانت تطالب بحقها في ميراث والدها، فجوبهت بالقمع والحجز والتغييب:

- (حيث سجنوا أختهم لا يطعمونها غير حفنات من الخبز الجاف وقشور التفاح، بينما استولوا على حصتها في عمارة الجامعة العربية)(الرواية، ص 129).

وشخصية عزة التي نبذها والدها وهمشها من حياته واهتماماته، لأنه يرى فيها الولد الذي لم يرزقه، في حين كانت هي تحاول عبثا أن تكسب حبه:-(الرجل الوحيد الذي حاربت ليحبني، كان يشيخ حولي بتسارع مخيف، يضعف ولا يضعف قلبه موصدا مصبوبا من فولاذ)(الرواية، ص 483)

***التطرف والارهاب:**

يعدّ مرمى النّفايات من الأماكن القليلة، الّتي التفت إليها الروائيّون، وسجّلوها ضمن أمكنة نصوصهم. المرمى في طوق الحمام مرتع يعتاش منه الأجانب :

- (كان ملوك المرمى الأفارقة يقيدون نيرانهم ويلقون إليها بالإطارات البلاستيكية أو الألمنيوم، لتطلق عمالقة الدخان عاليا في السماء، فجأة ميزت عين يوسف تلك الأسراب من الأطفال المعفرين يركضون كطيور رماد بين الأدخنة يضحكون ويسعلون ويغذون الحفر، وكانت نسوة بلون تلال النفايات يغصن بأطراف تلك الحفر، ويستخلصن من الصهارة مقتنيات وأطعمة، ويركضن بها إلى عششهن المدفونة في التلال الفواحة.)(الرواية، ص 392).

المهاجرون غير الشرعيّين في (طوق الحمام) قدموا من فضاءات ثقافيّة مختلفة، ليجدوا أنفسهم أمام منظومة ثقافيّة جديدة عنهم، تلفظهم وترفض اندماجهم. يعيش بعضهم في مرمى النفايات حياة بائسة أشبه بحياة الكلاب الضّالة. ويعانون يوميّا حالات شديدة من الخوف، بسبب مداهمات الشّرطة لهم. تيس الأغوات أو صالح التّركيّ واحد منهم، مجهول النّسب، لا يملك جنسيّة ولا بطاقة هويّة. قضى طيلة سنوات طفولته ومراهقته مختبئا في زقاق أبوالرووس، ثم فرّ من مربيّته أم السّعد ليواجه العالم، ويصنع لنفسه مستقبلا كباقي أترابه، فانتهى به المطاف إرهابيا في مرمى النفايات!.حيث انضمّ إلى جماعة متطرّفة تعرّف عليها في المرمى، يدّعي أفرادها أنّهم من عباد **الله** الخالصين وأنهم أحقّ بالمدينة المقدّسة وبالمسجد الحرام: - (ونحن عبيده الخالصون من الدنيا)(الرواية، ص 394).

هؤلاء المقصيّون، وبعد لفظ الأنظمة الحاكمة لهم، وعدم الاعتراف بهم كمواطنين شرعيّين، بحثوا في تسكّعهم المكاني والوجودي والثّقافي عن ظلال تشعرهم بالطّمأنينة والاستغناء الذّاتي، وتمدّهم بانتساب وانتماء جديد، حتّى لو كانت هذه الظّلال إرهابا وتطرّفا.

خاتمة

بعد قراءتنا لرواية (طوق الحمام) خلصنا للنتائج التالية، التي تنأى أن تكون تكرارا أو تلخيصا لما سبق ذكره في ثنايا البحث:

1-رواية (طوق الحمام) ذات بعدين، بعد خصوصي وآخر عالمي، غارقة في المحلية وموغلة في العالمية. رواية خصوصية لأنها رسمت لنفسها حدودا قطرية واهتمامات محلية، وحملت هم مكة والمكيين. ورواية عالمية لأنها تجاوزت المحلي إلى العالمية بطرحها لموضوع عربي وإسلامي. يشعر القارئ المسلم من خلاله -مهما كان انتماؤه الجغرافي واللغوي والثقافي والتاريخي -أنه معني بقضية تحول هوية المدينة المقدسة.

2-(طوق الحمام) تجاوزت حدود المتعة الأدبية، إلى كتابة حملت على عاتقها توثيق سيرة مدينة باسترجاع صور من ماضيها، وقراءة حاضرها، وتأويل مستقبلها. إنها إعادة بناء وتصحيح لمعطيات واقع تكبل بالأخطاء. فهي رواية أثبتت أن العمل الفني لا يقتصر على تصوير الواقع بعدسة محرفة لمعالمه وظلاله، أو سجل لتنضيد الأسئلة والانشغالات، بل هو أيضا عمل تنويري وتوعوي، يروم عرض الحلول ورسم معالم الطريق للخروج من التيه.

3-أجادت الكاتبة في وصف مختلف أشكال العنف المترتبة على المدينة المتحولة، التي باتت عنيفة ومتنكرة للبيئة والتاريخ والمرأة. فأضحى أفرادها يعيشون في دوامة من التيه والاغتراب.

4-لدى الكاتبة المكية "رجاء عالم" مستوى كبير من المعرفة والخبرة في الكتابة. وهذا ما منحها القدرة على طرح مواضيع في صميم الانشغال العربي والإسلامي. ومكنها من بناء نص سردي فسيفسائي، ممتلئ بالتشكيلات السردية: (المخطوطة والرسائل الإلكترونية والنوافذ الصحفية واليوميات، ونصوص سردية مقتطعة من رواية (نساء عاشقات)). وكذا مؤثث بأنواع متعددة من التقنيات السردية والمستلهمة من السينما والفوتوغراف والرسم والصحافة والتاريخ والعمارة:(استدعاء شخصيات وأحداث تاريخية، الاسترداد والاستباق الزمنيان، الحلم والتداعي النفسي، المونتاج، الكولاج، التأطير الفوتوغرافي).

المراجع:

1. - الداهي محمد، (2013)، صورة الأنا والآخر في السرد، القاهرة ، رؤية للنشر والتوزيع، ط 1.
2. - الغذامي عبد الله ، (2009)، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، الدار البيضاء-المغرب ، المركز الثقافي العربي ، ط 2 .
3. - الغذامي عبد الله ،(2005) ، حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية، الدار البيضاء-المغرب ،المركز الثقافي العربي ، ط 3.
4. - بن السائح الأخضر ،(2007)، جماليات المكان القسنطيني، قراءة في رواية ذاكرة الجسد، وهران ، منشورات دار الأديب.
5. - حرب علي، (2004)، حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، الدار البيضاء-المغرب ، المركز الثقافي العربي ، ط 2.
6. - رماني إبراهيم، (2007)، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجا ، الجزائر ، سحب الطباعة الشعبية للجيش-
7. - عالم رجاء ،(2012)، طوق الحمام، الدار البيضاء-المغرب ، المركز الثقافي العربي ،ط،4.
8. - عبد الرؤوف علي ،(2014)، من مكة إلى لاس فيجاس، أطروحات نقدية في العمارة والقداسة، ، مدارات للأبحاث والنشر،ط 2.
9. - فتحي حسن، (1988)، الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية، مؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1.
10. - كتاب جماعي (2000)، المحكي الروائي العربي، أسئلة الذات والمجتمع، الجزائر ، دار الألمعية للنشر والتوزيع ، ط 1.
11. - مجموعة باحثين من السعودية، 2005، موسوعة مكة المكرمة الجلال والجمال ،المؤسسة العربية للدراسات
12. - ميكشيللي أليكس، (1993)، الهوية، ترجمة علي وطفة، دمشق-سوريا ، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط 1.
13. - نجمي حسن، (2000)، شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، الدار البيضاء-المغرب ، المركز الثقافي العربي ، ط1، ص 118.
14. الفارابي ، أبونصر ،(1990) ، كتاب الحروف، تحقيق وتعليق وتقديم محسن مهدي، بيروت-لبنان، دار المشرق،ط 2.
15. - Roland Barthes ,(1970); La chambre claire,note sur la photografie ,Paris ,Ed.Gallimard